

إشكاليات الزمن والفضاء في وسائل الاتصال

أ/ يامين بودهان ، قسم علوم الإعلام والاتصال ، جامعة سطيف

مقدمة:

إن مفهوم الفضاء والزمن في وسائل الاتصال لحقهما من التغيير والتعديل في التحديد المصطلحي ما لحق مصطلح الاتصال ذاته، بالنظر لدينامكية هذا الأخير وعدم ثباته في تحديد اصطلاحي بعينه، لارتباطه أساسا بعامل الوسيلة أو "الوسيط" الخاضع لمبدأ التطور، فالتقدم الحاصل على الوسيلة الاتصالية بالإدخال المستمر لتكنولوجيات جديدة على طريقة أدائها، جعل هذا المفهوم يتغير ليساير ذلك التطور الذي أحدثته التكنولوجيا، فيكون مفهوما مكيفا وفق تطورها، وطبقا أيضا لآثارها المنتجة سواء على الفرد أو المجتمع.

نسقط الاستنتاج نفسه على مسألة التغيير في مفهومي الزمن والفضاء في وسائل الاتصال، فهما مفهومان ديناميكيان تبدلا، وتغير اصطلاحهما تبعا للتغير الذي لازم سيرورة عملية الاتصال من عصر الاتصال بالرموز والإشارات إلى عصر الاتصال الإلكتروني الافتراضي .

سينصب اهتمامنا في مقالنا هذا على رصد مسار تطويع الزمن والفضاء في عملية الاتصال، وكيف تم التعاطي مع هذين المعطين.

وسائل الاتصال: نحو تسريع الزمن الاجتماعي وتوسيع فضاءات التواصل

شهد مجال الإعلام والاتصال منذ بدايات الثمانينيات من القرن المنصرم تغييرات هامة، وخطى خطوات عظيمة على مستوى تحسين وتطوير خدمات الاتصال، وجعلها متاحة ومطورة إلى ابعد لخدمة الإنسان وتفعيل الاتصال الاجتماعي، فبإدماج ومزج تكنولوجيات الاتصال بشقوقها الثلاثة مجتمعة: تقنيات الاتصال السلبي واللاسلكي، تكنولوجيات الكمبيوتر، برامج الإعلام.. تولدت وبرزت منظومة إعلامية متماسكة، وأوجدت مجتمعا إنسانيا ذو سمات خاصة جديدة، أطلقت عليه أوصاف عدة، هناك من يسميه مجتمع الإعلام والمعلومات، والآخرون يطلقون عليه مجتمع عصر العولمة، ويسمونه أيضا مجتمع القرية الكونية — على حد تعبير عالم الاتصال الكندي مارشال ماكluهان —.

إن إدماج وتوظيف التكنولوجيات الحديثة لخدمة الاتصال، فرض إعادة النظر في كثير من مفاهيم النظرية الإعلامية، سيما على مستوى مفهومي الزمن والفضاء، فبفضل الرقمنة والتحول من مجال التناظرية إلى مجال وسائل الاتصال التي تعتمد على الأبعاد الرقمية، التي تمكن من تخزين كم ضخم من المعلومات في حيز مكاني جد محدود، واسترجاعها وطلبها في أي ظرف زمني، وفي أقل وقت ممكن مهما كانت المسافة، وتوظيفها بسرعة متناهية. فالرقمنة فرضت إعادة النظر في مفهوم الزمن، إذ كانت وسائل الاتصال التقليدية التي تعتمد على الدعائم والوسائط المطبوعة، أو الإلكترونية التناظرية تسعى بإلحاح لتسريع الزمن الاجتماعي، وذلك بفضل تسريع نقل الأخبار و المعلومات بتحديث آلات الطباعة، واختراع وسائل نقل المعلومات وتوصيلها

كالهاتف والفاكس، وربطها في شكل شبكات اتصال، ولكن مع إدخال الأبجدية الرقمية والتكنولوجيات متناهية الصغر على وسائل الاتصال شهد الاتصال الإعلامي في هذا القرن تحولات جذرية وأزالت التكنولوجيا الرقمية الحدود بين وسائل الإعلام التقليدية التي تندمج شيئا فشيئا في شبكات تنقل النص والصوت والصور بطرق رقمية (1).

الإنسان ورحلة تطويع الزمن والفضاء

إن قدرتنا الحالية على نقل واستقبال الرسائل المقروءة والسمعية والبصرية مع تجاوز الحدود التقليدية للزمان والمكان بات أمرا مألوفا، ولا يثير انتباه الكثيرين، فعندما نشاهد برنامجا تلفزيونيا، أو نستمع لحصة مذاعة، أو نطالع خبرا في صحيفة، أو نستعرض صفحة إلكترونية في الانترنت فكل ذلك يبدو عاديا للكثير من الناس، لكنه في حقيقة الأمر يمثل تغييرا هائلا في سلوك الاتصال الإنساني عند مقارنة ذلك بما كان سائدا في عصور قديمة.

فطور وسائل الإعلام عبر مراحلها المتميزة كان تراكميا وتواصليا ولم يكن قط قطعة مع ما كان سائدا، فكل وسيلة اتصالية جديدة تضيف مزايا أخرى للاتصال الإنساني وتقوي أكثر التفاعل الاجتماعي، فعصر الاتصال بالنطق والكلام كان إضافة وتيسيرا لعصر الاتصال بالإشارات والرموز، والكتابة بشقوقها: التصويرية والكتابة على أساس النطق، وكذا الكتابة الألفبائية كانت امتدادا لعصر الكلام والتخاطب، والطباعة (الكتب، المجلات، الجرائد...) أيضا كانت تكميما للاتصال المكتوب بالنسخ اليدوي ونفس الشيء بالنسبة للوسائل الإلكترونية (الإذاعة، التلفزيون، الأقمار الصناعية، شبكات الاتصال، التقنيات الحديثة للاتصال...) فقد كانت امتدادا وتوصيلا مع عصر الاتصال المطبوع ولم تمثل إطلاقا قطعة وانفصالا عما كان سائدا في السياق.

جبل الإنسان حسب الأنثروبولوجيين على سعيه الدؤوب لمجابهة الظروف الطبيعية ومحاولة تكيف ظروفها، والاستعانة بما لديه من قدرات جسمية وعقلية لتدليل الصعاب التي تصادفه في حياته اليومية، فنسج اللباس ليوارى عوراته، واتخذ له منزلا ليقويه حر الصيف وقر الشتاء، وأبدع في صناعة الآلات والوسائل المتنوعة ليسخرها لتحسين معيشته اليومية، فصنع المحراث اليدوي، وأنجز مختلف الآلات الحربية القتالية، وروض الحيوانات وألفها...، كل ذلك كان من أجل تكيف الظروف الطبيعية التي لم تكن حتمية مفروضة لا مناص منها، أو ظروفًا قاهرة وجب الخضوع المطلق لها دون تطويعها أو محاولة تحويلها، بل سعى الإنسان بما أوتي من عقل وذكاء لمحاولة التغلب على هذه الظروف، وتكييفها للحد الذي يستطيع، من أجل تطوير وعصرنة ظروف حياته للأفضل والأحسن.

قدرة الإنسان على الاتصال بغيره من بني البشر كانت محكومة هي أيضا بظروف الطبيعة، فكان اتصال الإنسان البدائي مع غيره محدودا زمانا وفضاء، إذ كان لا يستطيع التواصل مع إنسان آخر يبعده مسافة وفضاء، إلا في حدود الرقعة الجغرافية التي يتواجد فيها الاثنان، أو مجموعة الأفراد، موظفا في ذلك وسائل اتصال ذات

قدرة اتصالية محدودة مسافة ومكانا، إذ كان يستعين بالإشارات والرموز والحركات والإيماءات التي يصدرها الشخص المرسل، ويدركها الشخص المستقبل باستعمال حواسه المباشرة : السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق، لذا كان اتصالا مباشرا بطيئا يتم في جماعات صغيرة، فإذا تكاثر عدد الأفراد المشتركين في عملية الاتصال إلى حد كبير ستحدث عملية تشويش، ولن يحدث الاتصال والتفاعل المراد.

لكن بدهة الإنسان وحضور ذكائه الدائم حدا به إلى عدم الخنوع لقدر الطبيعة والتسليم التام لنمط الاتصال الذي كان سائدا، فمع تنامي وتزايد انتشار التجمعات البشرية واستحالة الاعتماد على الاتصال الشخصي البسيط فقط، دعت الحاجة للسعي لإيجاد وسائل اتصال تيسر التفاعل البشري، سيما مع الخوف من تنامي فكرة الصراعات والتقاتل بين بني البشر، في غياب الاتصال كأحد أهم العوامل في التنظيم الاجتماعي.

هذا ما دفع الإنسان لمحاولات متواصلة لإبداع واكتشاف وسائل اتصال جديدة، فسعى لاستخدام اللغة والتخاطب، ووظف كذلك الكتابة التصويرية، عن طريق الرسومات والصور المعبرة على الجدران وداخل الكهوف والمغارات، سيما مع انتقال حياة الإنسان من أسلوب الحياة بالصيد وجمع الثمار إلى تطوير حضارات كبرى كالحضارة الفرعونية وحضارة بلاد الرافدين، ثم إبداعه كذلك للكتابة الألفبائية، أين دعت حاجته لتسجيل كثير من المعلومات المتعلقة بشؤون حياته كعمليات البيع والشراء، وتسجيل مآثر الحروب والمعارك....

إن توظيف الإنسان للوسائل والدعائم الاتصالية كالورق، والحجر، والخشب، كان بغرض توسيع رقعة الاتصال وإطالته عبر الزمن، والتمكن من إيصال الرسائل الاتصالية إلى أبعد حد ممكن، فالرسالة الورقية يمكن حفظها وتخزين المعلومات فيها لفترة زمنية طويلة، واسترجاعها متى دعت الحاجة لذلك، وإيصالها للمكان المرغوب دون أن تتلف أو تفسد .

لذا قام الإنسان منذ القديم بتدوين وتسجيل المعلومات التي يرغب حفظها في دعائم متنوعة، فكان يستنسخ مختلف الكتب والمؤلفات ويوزعها في أماكن مختلفة من العالم، فقام العرب بنقل هذه العلوم من اليونان والصينيين والفرس، وقامت أوروبا بعد فتح العرب للأندلس بنقل مؤلفات وعلوم العرب، فكانت هذه الدعائم والأوعية الاتصالية أحسن طريقة لتسجيل الأفكار وتراكم المعارف الإنسانية جيلا بعد جيل، ولولاها لضاعت حضارات بأسرها واندثرت ذكريات أجيال كاملة.

إن ما نملكه اليوم من كنز معلوماتي موروث عن أسلافنا كان منة وفضلا من وسائل الاتصال التي حفظته عبر الزمن فلم يضع، فالاتصال المكتوب وإتاحته لإمكانية توسيع التواصل الإنساني عبر المكان، أي إلى حيز جغرافي واسع عموما، من منطقة لأخرى، ومن دولة لأخرى، ومن قارة لأخرى، ساهم في إحداث

تغييرات هائلة في كافة المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية... كنتيجة للقدرة على الكتابة والتسجيل، فتم فتح المكتبات العامة، وفتح المدارس للتعليم والكتابة، وتسجيل التشريعات والنصوص الدينية... ونفس الشيء نقوله عن دور وسائل الاتصال في تطويع عنصر الزمن أيضا، فعلى عكس الاتصال الشفوي الذي كان يزول ويمحى أغلبه فور انتهاء عملية الاتصال، سوى ما يبقى عالقا لفترة ما بالذاكرة ولا يلبث أن يزول ويندثر أيضا، أما الاتصال المكتوب المدون في الدعائم الورقية يحفظ لزمن أطول، وما تملكه من معلومات عن العصور السالفة وحضارتها وعلومها ما هو إلا من نتيجة وفضل هذه الوسائط.

ثورة الطباعة والتعاطي مع مفهومي الزمن والفضاء

تعد مرحلة الطباعة إحدى أهم خطوات تطور الاتصال الإنساني، فرغم انتشار النسخ اليدوي للكتب ومختلف التسجيلات في السابق، قبل اختراع يوحنا غوتنبورغ لآلة الطباعة، إلا أن عدد المنسوخات المتاحة كان محدودا للغاية ومكلفا للحالة المادية، إلا أن الطباعة أحدثت تغييرا مذهلا، إذ أصبح من الممكن إنتاج آلاف النسخ من الكتاب الواحد بقدر كبير من الدقة والسرعة.

وأدى انتشار المطابع وظهور الكتب رخيصة الثمن إلى بداية الثورة على التعاليم الدينية السائدة التي كانت تمنح السطوة المطلقة لرجال الدين. وأنتج وظهور المذهب البروتستانتي والإصلاحات التي نادى بها لوثر إلى المزيد من التغييرات التي كان لها أثرها على المجتمع الغربي حتى يومنا هذا.

وكان من نتائج انتشار الثقافة المطبوعة أيضا انتشار الفكر العقلاني التنويري في كافة أرجاء أوروبا الذي قاده مجموعة من فلاسفة التنوير والإصلاح.

ومع امتداد وانتشار ثقافة المطبوع واستحواذها لاهتمام جماهير واسعة على تباين تركيباتها الاجتماعية وعدم تجانسها، ومع تناقص تكلفتها الاقتصادية واتسامها بطابع الشعبية والجماهيرية، أي أصبح بإمكان الشخص العادي امتلاك الكتاب المطبوع، دعت الضرورة إلى إصدار جرائد وصحف زهيدة الثمن توزع على نطاق واسع، وساد الاعتقاد آنذاك أن هذه الصحف هي وسيلة مثلى لتثقيف الجماهير وتنشئتها فكريا وسياسيا، سيما مع انتشار الموجة الاستعمارية والاعتقاد بضرورة إيجاد صحافة تبرر السياسة الاستعمارية للدولة، وتصنع لها شرعية وقبولا لسياساتها في الوعي الشعبي الغربي.

فظهرت صحافة البنس التي لا يتجاوز ثمنها بنسا واحدا، وخلال أعوام قليلة انتشرت الصحف الجماهيرية انتشارا واسعا في كل أرجاء العالم، وقد أطلق عليها لفظ (الجماهيرية) لكونها توجه لمقاطع عرضية واسعة من الجماهير.

إن الانتشار الجماهيري للصحافة المطبوعة على حد تعبير عالم الاتصال الأمريكي تشارلز كولي Charles Cooly كان ذو تأثير أكبر من حيث قدرتها على التعبير ونقل الأفكار والمشاعر على نطاق

واسع، والتغلب على المسافة من خلال سرعتها في الوصول إلى القارئ، وكذلك من خلال خاصية الانتشار والوصول إلى جميع الطبقات (2).

وبفضل الاعتماد على تقنيات وآلات الطباعة وأجهزة الاستنساخ، ويمكن طبع آلاف أو ملايين من النسخ من أصل واحد، وضغط كثير من المعلومات في جريدة واحدة وإخراجها في حلة فنية أنيقة، توزع لجمهور عريضة موزعة الانتشار مهما تباعدت المسافات الرابطة بينها، فجريدة لوموند Le Monde أو النيويورك تايمز New York Times تخرران الأولى بفرنسا والثانية بالولايات المتحدة الأمريكية وتطلعان في أقاصي إفريقيا وقلب آسيا وجنوب أمريكا في وقت واحد، رغم عائقي الزمن والمكان، فالتقنية والتكنولوجيا ذلت هذين العائقين وجعلتهما مكيفان وفق حاجة الإنسان.

إن السمة الأساسية للمعلومة التي تحرر وتنشر في الصحافة هي الجدة والآنية، فهي تنقل الخبر في حينه، والأخبار بطبيعة الحال تتلاحق وتفقد قيمتها بعد الإطلاع عليها مباشرة (3). فالصحيفة التي قرأها واطلعت على أخبارها اليوم لا فائدة أجنبيها حين أطلعها غدا أو بعد أسبوع، لأن الخبر الصحفي يموت بعد الإطلاع عليه ويترك المجال للخبر الآخر الأحدث.

حين توجه الصحافة الجماهيرية رسائلها الإعلامية إلى جماهير منتشرة عبر فضاءات متباعدة

Individus dispersés dans l'espace ، وغير معروفين لبعضهم البعض ، ويتمون لطبقات اجتماعية غير متجانسة حسب الجنس، السن، المهنة، الدين... فهذا يعني أن الصحافة استطاعت بالفعل تطويع عامل الفضاء بإحداثها انقلابا في الحياة الاجتماعية بإشراكها مجتمعات متباعدة في الأحداث نفسها ونشرها في صورة استمرارية أخبار العالم فشكلت بذلك وسيلة للتوحيد الزمني للعالم (4 Synchronisation)، وربط الجماهير المستهدفة بالرسائل الاتصالية في شبكة واحدة حيوطها مترامية الأطراف في أماكن وفضاءات متباعدة ، فشكلت بحق رابطا اجتماعيا وثيقا.

وحين تعتمد الصحافة أيضا بصورة أساسية على عنصري الجدة والآنية في تعاملها مع الأخبار فهذا دليل على أنها بالفعل تمكنت كذلك من تسريع الزمن الاجتماعي وتوفير المعلومة والخبر للجمهور المستقبل في أسرع وقت ممكن دون تكليفه عناء البحث عنها، فعملية البحث عن الخبر تكلفه وقتا وجهدا عظيمين ليس بمقدوره بذلها ، وهذه المهمة منوطة فقط بمؤسسة إعلامية تتوفر على شبكة من مصادر الخبر والمراسلين موزعون على مناطق متعددة ، ولها إمكانيات اقتصادية تؤهلها لإصدار الجريدة المكلفة ماديا ، مع بداية جمع المادة الإعلامية إلى طبعها وتوزيعها . كل ذلك يجعل من المعتذر للشخص العادي القيام بهذه المهمة.

وسائل الاتصال الإلكترونية عهد القفز فوق الفضاءات والأزمنة

مكنت التقنية والتكنولوجية الإنسان من التوجه من نمط الاتصال الشخصي المربوط بعامل المكان والفضاء إلى نمط الاتصال بالوسيط Medium ، الذي يتخطى هذا العائق ويوصل المعلومة إلى مسافات

أطول، فالهاتف أتاح فرص التواصل بين الأشخاص المتنائين وربطهم في علاقات اتصال تفاعلي تبادلي وآني، لم يكن مشهودا من قبل عائق المسافة على حد تعبير جوديت لازار Judith Lazar ثم تذليله وتكثيفه في المجتمعات الصناعية خاصة. أين تملك ما يفوق 90% من مواطنيها هواتف (5). كما ناب الاتصال بالتقنية الاتصال الشخصي وجها لوجه وحل محله، وبات الهاتف سيما مع تطوره المذهل مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين والانتقال من عصر الهاتف المحمول أو هاتف الجيب متعدد الخدمات أحد أهم وسائط الاتصال الرابطة اجتماعيا، فملايين البشر مربوطون في شبكات هاتفية، وبإمكانهم التواصل مع بعضهم البعض في أي ظرف ومني في حال توفرهم على أجهزة رابطة وتواجههم في هيئة تواصل. ثم ظهرت الإذاعة لتدخل وسائل الإعلام عهد الحدث المباشر والآنية، وتوسعت هذه الحركة في بداية القرن العشرين، ثم أكملها التلفزيون بتنظيم جهازه الإعلامي تبعا للبث المباشر الذي يسمح بنقل الخبر في الوقت الحقيقي.

وبرز هذا النمط الاتصالي الجديد كتحول حاسم بالفعل في مجال الاتصال، إذ حقق بحق هدف الصحافة المتمثل في تسريع نقل الخبر، وزاد انتشار هذا النمط سيما مع تكاثر الأقمار الصناعية ومحطات البث المباشر، وأهمية هذا البث المباشر تركز على إتاحتها لإمكانية "المتابعة المباشرة للتاريخ".

وتمتد أهمية البث المباشر الذي أتاحه مجال المرئي المسموع إلى مساهمته في فرض إيقاع خاص في الحياة الاجتماعية والسياسية، إذ صار الخبر المدعم بالصور من أهم محددات صناعة الرأي العام تجاه القضايا السياسية المطروحة، وأحد العوامل المحسوبة والمؤثرة في صناعة واتخاذ القرار السياسي، والبرامج المباشرة التي تبثها محطة الأخبار الأمريكية CNN أو قناة الأخبار القطرية "الجزيرة" ليست عنا ببعيدة، فهما مثالان فريدان عن أهمية النقل المباشر في تشكيل اتجاهات ومواقف الرأي العام حول قضية ما، إذ يفضل النقل المباشر والآني لجزريات الأحداث في العراق يستقي ويبنى الرأي العام صورا ومواقف اتجاه ما يحدث هناك.

وفضلا عن ذلك، عادة ما تشكل المؤسسات الإعلامية الكبرى إحدى أكبر جماعات الضغط المؤثرة في اتخاذ القرارات السياسية، لفضل تميزها بوصولها إلى الخبر في أنه ونشره وبثه في حينه "الأخبار الساخنة"، هذا ما يدعو أنظمة الحكم القائمة إلى ممارسة سياسة التوجيه والاحتكار الدائمة اتجاه وسائل الإعلام المسموعة والمرئية فتمتع التلفزيون والإذاعة بالسلطة والحرية المطلقة يهدد كيان السلطة السياسية، فهذين الجهازين حسب جورج بالاندييه قد يتلاعبان بالحياة السياسية بقدر ما تتلاعب هذه بها، بقدر ما يقلب مفهوم السلطة ويجعلها خاضعة لتكنولوجيا المظاهر (6).

إن واقع المجتمع المعاصر كما قال عزري عبد الرحمن يشير إلى أن المرئي بتوظيف وسيلة التلفاز والوسائل الأخرى هو السائد، وسيادة المرئي على حساب المعنى "المطبوع" مرتبط أساسا بسيادة التكنولوجيا وعلوم التقنية (7)، والفرد بالتالي يبقى مشدودا بعينه إلى المرئي دون أن يكون حاضرا بوعيه فيما يراه، فيساهم هذا

النمط الاتصالي بذلك في تكوين تجربة عاطفية جماعية يشترك فيها كل الأفراد الذين يشاهدون البرنامج في الزمن الواحد ،فانتقل مفهوم الفضاء المرئي من الفضاء المقترن بالصورة المجسدة الطبيعية أو التماثلية ،أين يسعى الإنسان حسب عزى عبد الرحمن إلى تجسيدها وشحنها ببعض المعاني الذاتية والظرفية ،كما نجد ذلك في فن الرسم أو النحت أو النقش...إلى فضاء الصورة المصنعة المادية المرتبطة بالتكنولوجية أو الصورة المركبة ،"هذه الصورة الجديدة ناتجة عن عملية منطقية رياضية تؤثر علة معايير ضوئية للألوان والأشكال والنقاط Pixels لتوجد صورا ذات مستوى عال من الوضوح"(8).

فهذا الفضاء الجديد صنيع التكنولوجيا هو فضاء أحدث "فوضى" في المكان الاجتماعي من خلال القفز فوق الأمكنة، التي لا ترتبط بحزام من الدلائل القيمة، أضف إلى ذلك نموذج أحادي احتكاري من المكان، كأماكن الاجتماعات مثلا، على حساب تنوع جغرافية الحياة(9). فالبرنامج التلفزيوني الواحد ينقل لنا مشاهد ولقطات عدة ، ويطوف بنا في فضاءات متنوعة ،فقد يأخذنا إلى أهرامات مصر ،ليقفز بنا بعد وهلة قصيرة لقوس النصر بفرنسا،ثم يحط بنا أمام تمثال الحرية بالولايات المتحدة الأمريكية ،إلى جانب ذلك تمكننا التكنولوجيات الحديثة المدخلة على تكنولوجيات المرئي القفز Zapping بين القنوات الفضائية واختيار البرنامج الموافق لذوق ورغبة المشاهد ،فهو أمام زخم من الصور المثبتة ،له الحرية والقدرة على التحول في هذه الفضاءات المفتوحة ،غير أنه ليس فضاء حقيقيا مرتبط بحياة الفرد ،بل هي فضاءات موازية خيالية تجعلنا نقيم علاقات مع الأشخاص الذين نشاهدهم فتبنى اتجاههم مواقف حب وتقدير أو مشاعر كره وبغض، كأننا نعرفهم حق المعرفة وقد يكون بطل فيلم أو مسلسل نموذجاً يقتدى به أو يحاكي سلوكه ،سيما المراهقون والأطفال الذين تنتشر في أوساطهم ظاهرة تقمص شخصية التلفزيون.

فهذا الفضاء المصنع الموازي يخلق أحاسيس وانفعالات لدى المشاهد توحى بتولد درجة تفاعل شديدة بينه وبين ما يحوي هذا الفضاء الجديد ،ويذهب آرمون ماتلار Armand Mattelart إلى التنبيه من مخاطر ما سماه هو "بأنظمة تشكيل الأحاسيس برقمية المعرفة،فهي تفرع الذاكرة وتفرض نمودجا معين كمعين للعالمية تفرض معه أسلوبا للتفكير والشعور تحت غطاء وعقلية جديدة"(10).

إذن فهذا الفضاء الموازي حسب ماتلار يهدد الخصوصيات الفردية في بناء الأحاسيس، وفي نفس الاتجاه يذهب جون بودر ياردال ، الذي يرى أن الفضاء الخيالي قابل لكل أشكال التلاعب والتزوير، ويضع الشاهد في حالة مزعجة من القلق وعدم التأكد، وانتشارها هو عامل يساهم في عملية الأبعاد عن الواقع (11)، وتكون محفزا ودافعا للأفراد للانعزال والانطواء حول ذواتهم ،وهذه النتيجة الانعزالية للتعرض الدائم لمحتويات وسائل الاتصال هو من أكبر دواعي تراجع وانحسار العلاقات الاجتماعية الأسرية التقليدية ،فنجد أفراد الأسرة الواحدة كل يتجه لشاشته أو جهازه المفضل "التلفزيون، الراديو ،الكمبيوتر ،البالادور..."، وينزوي في جانب من البيت، ولا يتلاقى أفراد الأسرة الواحدة في مكان واحد لتناول أطراف الحديث كالسابق إلا ما ندر.

أن ظاهرة القفز هذه عبر الفضاءات الخيالية المركبة مع تداخل المشاهد المعروضة في فسيفساء اتصالية مثيرة لازمتها أيضا ظاهرة تركيب الأزمنة وتداخلها ، فالأزمنة في وسائل الاتصال الحديثة تحمل التفكك ، إذ تتداخل في لحظة من الزمن فيصبح الزمن لا زمنا ، كما يقع التمزق في الزمن المعيش في حياة الإنسان وزمن المرئي في الشاشات الإلكترونية ، فمن البرامج المرئية هي أزمنة متداخلة مفككة في لحظة واحدة ، فالبرنامج الواحد يأخذنا إلى العصر الحجري ليعود بنا في وهلة قصيرة إلى العصر الحديث ليعرج بنا بعد ذلك في آفاق مستقبل بعيد .

فالمرئي لا يحمل بوضوح المستقبل ولا الماضي ، أنه ينشئ في أدائها الحاضر الأزلي ، هذا الحاضر هو دائما جديد وحاضر ، والمشاهد الذي يعيش هذا الزمن يعيشه بالضرورة على مستوى العواطف ، أي يتأثر لحظتها ، وفي هذه الحالة تكون الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية محدودة ، فالإنسان يتذكر تلك التجربة التي تم موسطها بالرمز والتأويل أحدثت إحساسا بالمتعة الآنية والإتمام (12).

ومن زاوية أخرى فحين نعقد مقارنة بسيطة بين المنتج الاتصالي المرئي والمنتج الاتصالي المطبوع من حيث تعاطي كلا المنتجين مع مفهومي الزمن والفضاء فنجد أن المنتج المطبوع يفرض احترام عامل الخطية ، فيفهم في حدود نظامه ، وبنائه الخطي الحالي ، دون أن يستطيع الكاتب أو القارئ تحويله أو تعديل وحداته المنطقية الممثلة في الكلمة والجملة (13). فالنصوص تبدو على أنها سلاسل متعاقبة من الحروف والكلمات والجمل والفقرات ، وفي المقابل بإمكان القارئ التوقف لحظة للتفكير أو التأمل عند مقطع نص معين ، أو العودة للوراء ثم متابعة القراءة عكس المنتج المرئي ، فالحصّة التلفزيونية أو الإذاعة هي محددة من الناحية الزمنية "نصف ساعة ، أو ساعة ، أو أكثر..." (14) والتي تستدعي عنصر المتابعة المستمرة من البداية إلى النهاية دون القدرة على التوقف ، لأن المشاهد لا يتحكم في الحصّة ، مبثّة من طرف محطة مركزية لجمهور غير محدد عددا ، ما عدا في حالة البرامج المسجلة المعروضة في لأجهزة الفيديو كاسيت أو الفيديو ديسك .

إضافة إلى ذلك فالمرئي يحطم البنية السردية للخطاب على حد تعبير عزى عبد الرحمن ، عكس الخطاب المكتوب المرتكز على البنية السردية ، وذلك بصفة التابع الزمني والتحول ، فالإنسان حكى وجوده سرديا ، وذلك مثل الأسطورة أو التاريخ في حالة المجتمع ، أو الأسرة الذاتية في حالة الفرد ، أما المرئي فقد أفقد اللغة الطبيعية " أي الشفوية المكتوبة " ، ويظهر ذلك في اختفاء حجم واسع من الثروة اللغوية من الاستعمال ، وندوة اللجوء إلى الاستعارة والمجالات الأخرى الرمزية في الخطاب ، والاتجاه نحو التقني على حساب الطبيعي .

وحين تحدث المفكر الايطالي امبرتو ايكو عن تلك الحرب المزعومة بين المرئي والمطبوع قال :

" يبدو لي أن المعلومة التي تمررها الصورة لا تلغي الحاجة إلى المعلومة التي تصل عبر المكتوب إلا لدى الأشخاص العاديين الذين يشكلون بعض الخطورة . لكن لدى أكثرية الأشخاص العاديين يحدث هذا النوع من المعلومات بالعكس فضولا لما هو مطبوع . وأعتقد أن هناك دافعين متناقضين . الأول هو الحاجة الطقولية إن لم نقل المرضية للتكرار ، فأنا أعلم عن طريق التلفاز أن السيد فلان قد سقط من النافذة وقراءة ذلك في الغد في

الجريدة يطمئني ويجعلني واثقا من نفسي، إنها الطقوس والإيقاع. والدافع الآخر هو الحاجة إلى التعمق والتفكير، لأن السمعى، -البصري يخلف إحساسا بعدم الاكتفاء.

وليس صدفة أن يوجد اليوم هذا الكم الهائل من الجرائد والكتب وهذه الجموع الغفيرة في المكتبات. وهنا أكرر أن الحديث عن حرب بين المرئي والمكتوب يبدو لي أمرا قد تجاوزته الأحداث كليا. بل يجب، على العكس، تحليل التكامل القائم بين الاثنين وهو قوي ومتواصل لدرجة أن متعهدي إعلانات "بينتون Benetton كانوا على حق عندما وظفوه. "(15).

كما قضت تقنية التشعب النصي Hypertexte على هذه الخطية في السرد النصي، حيث يمكن الربط بين أي موضع وآخر داخل النص أو الوثيقة، لتتمكن من الإبحار والتحوّل الحر في ثنايا الصفحات الإلكترونية، بل يمكن القفز من نص إلى نص آخر لربط ونقيم علاقات بين المترادفات المعجمية مثلا، فحين نبحث عن المرادف المعجمي لكلمة "تقنية" داخل نص معين يحيلنا ذلك إلى كلمة "تكنولوجيا" في نص آخر. إن هذا الانفتاح أو التشعب النصي عزز أكثر فضاءات الاتصال، وجعلها أكثر اتساعا وانفتاحا.

تكنولوجيات الاتصال الحديثة وبناء فضاءات وأزمنة تفاعلية وافتراضية

إن تكنولوجيات الاتصال الحديثة المتمثلة في الحسابات الإلكترونية، الأقمار الصناعية، ووصلات المكرويف، والألياف الضوئية أتاحت عددا كبيرا من فتوحات الاتصال خلال العقدين الماضيين، مثل: التلفزيون الكابلي التفاعلي، والتلفزيون منخفض القوة، والفيديو كاسيت، والفيديو ديسك، والتيليتكست، والاتصال المباشر بقواعد البيانات، والهواتف المحمولة، والبريد الإلكتروني، والمؤتمرات عن بعد، وجميعها وسائل تخاطب الأفراد، وتلي حاجاتهم ورغباتهم الذاتية.

يتمثل الاتجاه الجديد لوسائل الاتصال الحديثة في تعزيز وتقوية درجة الاتصال بين القائم بالاتصال والمستقبل إلى حد التفاعل الآني، أي تبادل الأدوار الاتصالية، فلم يعد المرسل مرسلا وكفى، بل أضحي مرسلا ومستقبلا في الآن نفسه، فحين يبحر الفرد عبر شبكة الانترنت ويتواصل بالبريد الإلكتروني، أو ينظم إلى إحدى حلقات النقاش، فهو يكون أمام فضاء اتصالي جديد، هو الفضاء التفاعلي، الذي يوفر خدمات عدة كتلقي المعلومات المتخصصة من قواعد البيانات، تحقيق خدمات التسويق والتجارة الإلكترونية، الاطلاع على الصحف الإلكترونية، إبداء المواقف والآراء اتجاه قضايا مطروحة والاتصال والمؤسسات والأجهزة السياسية في إطار ما يعرف بالاتصال السياسي الإلكتروني ...

كل هذه الخدمات توفر في سياق آني تزامني، وهذه سمة جديدة لوسائل الاتصال الحديثة أفرزتها التكنولوجيات الحديثة المتمثلة في الرقمنة وتوظيف تقنيات اتصال متناهية الدقة كالألياف الضوئية، وبفضل اندماج الوسائط المتعددة " الصوت، الصورة، والنص" فيما بينها والارتباط بعضها ببعض برابط معلوماتي، أي اندماجها أكثر من مجرد تجميع لتقنية الصوت والصورة والنص، بل هو ارتباط بنظام معلوماتي ذكي، بمعنى إدارة

مضامين البرامج بطرق ذكية ، إذ يقوم النظام الذكي بفهم رغبة المستخدم ، وذلك بالبحث عن المعلومة التي يحتاجها المستخدم ، وبهذه الطريقة يقوم بإبداء رغبة أخرى ، حيث يتمكن من الإبحار في البرنامج ، هذه الآلية في معاينة المعلومات هي ما أطلق عليه حالياً آلية "الوسائط المتشعبة" (16) **Hypermédias** .

غير أن الداعي للذكر بخصوص التحول الطارئ على مفهوم فضاء الاتصال في ظل التكنولوجيات الجديدة هو لا مركزية هذا الفضاء الحر ، أو ما يسمى "بتفتيت الجماهير" **Demassification** ، أو الانتقال من التوجه الجماهيري إلى التوجه الفردي (17) ، بمعنى تقديم رسائل متعددة تلائم الأفراد والجماعات الصغيرة المتخصصة ، عكس الاتجاه السابق الذي ظل سائداً حتى بداية الثمانينيات من القرن العشرين ، الذي كان يعيل نحو المركزية أو توحيد الجماهير ، بمعنى نقل نفس الرسائل الاتصالية إلى كل الجماهير .

رغم أن تفتيت الاتصال سيتيح قدراً كبيراً من التحكم في نوع الوسيلة المستخدمة واختيار المضمون الملائم ، سواءاً المقروء ، أو المسموع ، أو المرئي ، إلا أن تفتيت الاتصال ولا مركزيته له بعض المضار ، كتقسيم الجمهور الواحد العريض إلى عدد كبير من الجماعات الصغيرة ذات الاتجاهات المتباينة ، وتضييق اهتمامات الجمهور بتجنب المعلومات غير المرغوب فيها ، والميل أكثر إلى مواد الترفيه والتسلية ، والإعراض عن المحتويات الجادة كالأفلام الثقافية والتعليمية .

وهذا الاتجاه الجديد لوسائل الاتصال أو النقلة النوعية في التوجه نحو الجمهور ينقض زعيم الاتصال الكندي المشهور "مارشال ماكلوهان" **M MacLuhan** ، الذي أكد أن تكنولوجيات الاتصال المتطورة جعلت أجزاء العالم تقترب من بعضها البعض متجهة نحو الدمج فيما سماه "بالقرية العالمية" **Le village globale** (18) ، حين أشار في كتابه المنشور عام 1967 بعنوان "الوسيلة هي الرسالة" **The medium is the message** ، أن العالم يعيش في قرية عالمية وأن الوسائل الإلكترونية الحديثة ربطت كلا الآخر ، وبالتالي فإن المجتمع البشري لن يعيش في عزلة بعد الآن ، وهذا يجبرنا على التفاعل الجمعي والمشاركة ، فقد تغلبت الوسائل الإلكترونية على قيود الزمن والمسافة .

إلا أن القرية العالمية التي زعم ماكلوهان وجودها في الستينيات لم يعد لها وجود حقيقي مع بداية الألفية الثالثة ، أين تتجه وسائل الاتصال نحو تجزئة فضاء الاتصال وتفتيته لا نحو دمج ووحدة ، ونزوع الأفراد والجماعات لاستخدام وسائلهم الخاصة المفضلة مستقطبين إلى آلاف المقاطعات المنعزلة .

إن ماكلوهان أعطى زيادة عن ذلك وسيلة الاتصال أهمية أكبر مقارنة بمحتوى الرسالة ، فالمضمون غير مهم في نظره ، وأن المهم هو الوسيلة التي تنقل المحتوى ، لذا فالمخترعات التكنولوجية المهمة هي التي تؤثر على تكوين المجتمعات ، ما أطلق عليه هو "الحتمية التكنولوجية" (19) ، ولن نفهم نمط التغييرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمعات دون فهم العمل الذي تعمل بمقتضاه وسائل الإعلام ، فأى وسيلة هي امتداد لحواس

الإنسان ،أو الفضاء الجديد صنيع وسائل الاتصال هو امتداد للفضاء الحسي للإنسان، أنه فضاء موازي للفضاء المحسوس ،افتراضي غير واقعي ،لكنه يحاكي الواقع أو يناظره إلى درجة يتخيل لنا معها أنه واقع .

فالانترنت تمثل فضاء عاما افتراضيا تسكنه جماعات افتراضية تتشكل وتتألف عن بعد، وتجارة إلكترونية للبيع والشراء عن بعد، ومعارض افتراضية لبيع الكتب، ومكتبات رقمية افتراضية.. أنها هجرة جماعية إلى الخيال والافتراضية على حد تعبير نبيل علي، ينزح خلالها مواطنو الانترنت _قابعين في أماكنهم _ إلى مواقعها العديدة ،يتصفحون محتوياتها ،ويتفاعلون مع ما تعرضه صفحات الواب من معلومات وخيارات(20).

فالفضاء الافتراضي على سبيل المثال قد يتيح لي إمكانية زيادة ردهات متحف اللوفر ومشاهد معروضاته، والتحول في أروقتة ،وبإمكانني أيضا أن أتجاوز مع أعضاء الجماعات الافتراضية ،أن أتناقش معهم وأشاركهم اهتماماتهم وهمومهم، أتبادل معهم خبراتي وتجاربي.

إن التكنولوجيات الجديدة لوسائل الاتصال لها قدرة كبيرة على التوليد والإبداع الافتراضي ، فهي تملك الإمكانية لخلق عوالم افتراضية تحاكي العالم الحقيقي، وتكون ملئي بالتجريد والمحاكاة، والتمثيل الرمزي ،لتطلق يد الفرد في الهروب من هذا الواقع الحقيقي الذي يأسره،وقد يلاقي الفشل فيه، فلا يحقق ذاته وطموحه ، ليكون بذلك الواقع الافتراضي منفذا لتحرير الفرد، ومهربا لتحقيق شحنة إحباطاته من ذلك الواقع الحقيقي .

نظرة استشرافية

لو نطلق العنان لأفكارنا مستشرفين المستقبل المنظور في ظل التطور المدهش لتقنيات الاتصال لأمكن رسم سيناريوهات شتى لمجتمعات وإنسان المستقبل ،فقد تمكنه التكنولوجيا حقا من العيش في واقع افتراضي يمكن أن يتشابه إلى قدر كبير مع الواقع الحقيقي، وقد يكون هو نفسه، فيعرج به في لحظة زمنية آنية إلى فضاءات وأمكنة افتراضية متعددة حسب رغبته وطلبه ،فتلغى حواجز الحدود والمسافات، وبعد أن كنا نشاهد أفلام الخيال العلمي وقد استقل فيها بطل الفيلم مركبة الزمن منتقلا فيها عبر الأزمنة ،تارة إلى الماضي وتارة إلى المستقبل ،هل يأتي بالفعل اليوم الذي يتحقق هذا الطموح الذي كان خيالا ونوعا من التفكير البيوتوبي ، فيكون واقعا محققا، فيتجول الإنسان جسدا وروحا عبر الأزمنة ويتخلص من حواجز الوقت ؟ أم أن ذلك نوع من التكهن والاستشراف بعيد المنال، ومن المستحيل تحقيقه رغم تطور الاتصال ، وإبداع وسائل جديدة غاية في التقدم والحدثة ؟

هذه إشكالية تفرض نفسها بصورة ملحة، ولكن المستقبل هو الكفيل فقط بالإجابة عنها، مترقبين نحن عن كتب نتائج هذا التطور المرتقب.

الهوامش المرجعية :

1 -Zemour.P, La communication publique, Paris, PUF, collectionni Que sais- je ? 1995.

- 2 —ملفين دفلير وساندرا بول روكتيش ، نظريات وسائل الإعلام .تر:كمال عبد الرؤوف ،ص ص 52—53.
- 3Judith Lazar, La science de la communication .Coll. Que sais- je?,puf 1992, Alger, p6.
- 4 مي العبد الله،ثورة وسائل الإعلام والاتصال:التحولات الكبرى ونتائجها www.elsohof.tahkikat.hmt 95 -5 .Judith Lazar, op .cit, p95.
- 6— مي العبد الله،مرجع سابق.
- 7— عزى عبد الرحمن، "الإعلام والبعد الثقافي:من القيمي إلى المرئي"، مجلة التجديد.ماليزيا، السنة 01، ص 131—132.
- 8— مي العبد الله ،مرجع سابق.
- 9— عزى عبد الرحمن، مرجع سابق.
- 10Armand Mattelart, La mondialisation de la communication .Paris, Coll Que sais-je ? ,1996.
- 11J.Baudrillard, Le crime parfait .Paris, Galile, 1995 .
- 12— عزى عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 138.
- 13Nelson Thall, L'impact des technologies sur l'esprit humain, <http://agora.qc.ca/magazine.html>
- 14Robert M.Martin, Dans les filets de l'Internet. <http://agora.qc.ca/magazinme.html>
- 15 - حوار مع امبرتو ايكو،ترجمة وليد سليمان، إننا نقرأ عبر ثقب مؤخرتنا". <http://www.arabwashingtonian.com/arabic/article.php?issue>
- 16— ميشال انقولا ،الوسائط المتعددة وتطبيقاتها في الإعلام والثقافة والتربية .الإمارات ،تر:نصر الدين العياضي ،الصادق رابع ،دار الكتاب ،2004،ص20.
- 17— حسن عماد مكاوي،تكنولوجيات الاتصال الحديثة ،مصر،الدار المصرية اللبنانية ،1993،ص243.
- 18— نفس المرجع،ص252.
- 19— نفس المرجع،ص275.
- 20 — نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات.الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، العدد 265، 2001، ص 104.